فضل الإنفاق وأهمية العفة

لأبي عبد الرحمن

عبد الرقيب بن علي بن أحمد أبو عبد الرحمن الكوكباني

كان الله له في الدارين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: ١]، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]. أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثات بدعة وكل بدعة ضلالة.

[فصل: الحث على تحسين الخواتيم]

معاشر المسلمين؛ هذا الشهر الكريم قد آذن بتقويض الخيام، ولم يبق منه إلا بضعة أيام فحريّ بالمسلم الذي يعرف قدر النعمة أن يغتنم ما بقي من أيام هذا الشهر ولياليه بما يعود عليه بالعوائد المرضية. روى الشيخان[1] عن عائشة رضي الله عنها قالت: **كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله.**

---

[1] أخرجه البخاري (٢٠٢٤) ومسلم (١١٧٤).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وفي الحديث الحرص على مداومة القيام في العشر الأخير إشارة إلى الحث على تجويد الخاتمة[٢].

يملأ الإنسان ليله بالقيام والتلاوة والاستغفار والأذكار، ونهاره بالقربات من صيام وتلاوة وصلاة وبرّ وأنواع المعروف. المعروفة لديكم.

[فصل: حصول التقوى من حِكم الصيام]

ثم لا يخفى عليكم حكمة من الحكم في مشروعية الصيام ذكرها الله في كتابه بعد الأمر بالصيام في قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٣][٣].

[فصل: الحث على الإنفاق في سبيل الله وفي سائر وجوه الخير]

ألا وإن من أبرز صفات أهل التقوى : الإنفاق في سبيل الله، والصدقة وإخراج الواجب في المال، فإن الله قد ذكر هذا في صفات أهل التقوى: ﴿**الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**[٤]﴾ [البقرة: ١ - ٣].

---

[٢] في "فتح الباري" (٤/ ص ٢٧٠).

[٣] قال الإمام البغوي رحمه الله في تفسير هذه الآية: يعني بالصوم لأن الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات. ("معالم التنزيل"/ ص ١٩٦).

[٤] قال الإمام ابن كثير رحمه الله: كثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**». والأحاديث في هذا كثيرة. ("تفسير القرآن العظيم"/ ١/ ص١٦٨-١٦٩).

وقال الله تعالى في كتابه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

وقال الله عز وجل في كتابه بعد أن ذكر أصنافا من متاع الدنيا: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥، ١٧].

فلا تتأتى نصرة هذا الدين إلا ببذل المجهود ومنه الإنفاق في سبيل الله[٥] لمن يقوى عليه ويقدر عليه. قال الله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال الله عز وجل: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨].

فقد أمر الله عز وجل بالإنفاق. وهذا موسم يجتهد الصالحون فيه بالإنفاق، ولهم في ذلك أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **كان رسول الله صلى الله عليه وسلم**

وقال الإمام ابن عثيمين رحمه الله: ومن فوائد الآيات: أن من أوصاف المتقين الإنفاق مما رزقهم الله؛ وهذا يشمل الإنفاق الواجب كالزكاة، وإنفاقَ التطوع كالصدقات، والإنفاقِ في سبل الخير. ("تفسير القرآن"/ للعثيمين/ ٣/ ص١٠).

[٥] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والعاجز عن الجهاد بنفسه يجب عليه الجهاد بماله في أصح قولي العلماء وهو إحدى الروايتين عن أحمد، فإن الله أمر بالجهاد بالمال والنفس في غير موضع من القرآن، وقد قال الله تعالى : ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ [التغابن : ١٦] وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**» أخرجاه في "الصحيحين" . فمن عجز عن الجهاد بالبدن لم يسقط عنه الجهاد بالمال كما أن من عجز عن الجهاد بالمال لم يسقط عنه الجهاد بالبدن. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٨/ ص ٨٧).

أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة[٦].

وبناء على هذا -يا معشر المسلمين- ندندن حول مسألة الإنفاق في سبيل الله. إن الله عز وجل قد أمر بالإنفاق في سبيله، وهذا شامل لكل ما كان اسمه الإنفاق. يشمل زكاة المال والقيام على العيال بما يسد خلتهم ويقضي حاجتهم ويشمل زكاة النافلة. قال الله تعالى في كتابه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وقال الله عز وجل: ﴿**آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ [الحديد: ٧].

وقال المولى عز وجل في كتابه: ﴿**وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [المنافقون: ١٠].

وقال مولانا الكريم في محكم التنزيل: ﴿**لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**﴾ [الطلاق: ٧].

وقال الله عز وجل في كتابه: ﴿**قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ**﴾ [إبراهيم: ٣١].

وقال الله عز وجل في كتابه: ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [التغابن: ١٦].

معاشر الصائمين القائمين، إن للإنفاق في سبيل الله فضائل جمة، منها: أن الله عز وجل يحتسب القليل من المبذول لمن كان ينفق، وهذا شامل لمن كان فقيرا يبذل ولو شق التمرة، فإن الله عز وجل لا يحقر

---

[٦] أخرجه البخاري (٦) ومسلم (٢٣٠٨).

هذا المعروف. قال الله تعالى في كتابه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]. وقال مولانا الكريم: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

و "ما" من الأسماء الشرطية وهي تفيد العموم، فيشمل أقلّ مبذول. ينفقه العبد المؤمن فإنه يثبت أجره عند الله. روى الشيخان[٧] من حديث عدي بن حاتم ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: **«ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة»**.

وجاء في "الصحيحين"[٨] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ**».

وجاء في صحيح مسلم[٩] من حديث أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك وأن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى**».

فالفضل شامل الزائد على قدر الحاجة ولو بشق التمرة[١٠].

فلا تحقرن من المعروف شيئا تقدمه في سبيل الله[١١]، فإن الله يحسب لعبده المؤمن مثاقيل الذرّ وشق التمرة، وهذا تنبيه بالأدنى على الأعلى، فكيف بمن أنفق أجاويد المال وأنفق أنفس ما عنده ابتغاء مرضاة الله.

---

[٧] أخرجه البخاري (٦٥٣٩)/ دار السلام) ومسلم (١٠١٦)/ دار ابن الجوزي).

[٨] أخرجه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤).

[٩] أخرجه مسلم (١٠٣٦).

[١٠] قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

من فضائل الإنفاق في سبيل الله والصدقات والإحسان والعطاء ولا سيما في هذه المواسم المباركة: أن الله جعل الإنفاق من أسباب النماء والبركة لا من أسباب النقصان: ودليل ذلك ما رواه مسلم[١٢] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**».

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: «**أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك ولا توعي فيوعي الله عليك**»[١٣].

وصح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «**أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا**»[١٤].

وصح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**قال الله أنفق يا ابن آدم أنفق عليك**»[١٥].

وقد قال الله عز وجل في كتابه: ﴿ **وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ [سبأ: ٣٩].

---

[١١] قال الله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ الله وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ الله لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٠ - ١٢١].

[١٢] أخرجه مسلم (٢٥٨٨)/ دار ابن الجوزي)

[١٣] أخرجه البخاري (٢٥٩١) ومسلم (١٠٢٩)

[١٤] أخرجه الطبراني في "الكبير" (١٠٢٤) وأبو يعلى في "المسند" (٦٠٤٠).

[١٥] أخرجه البخاري (٥٣٥٢) ومسلم (٩٩٣).

وثبت في "الصحيحن"[١٦] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا»**.

ومن فضائل النفقة في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله: أنها سبب لمغفرة الذنوب. قال الله تعالى: **﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾** [النور: ٢٢].

معاشر المؤمنين؛ قال الله عز وجل في كتابه: **﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾** [التغابن: ١٧].

وروى الشخان[١٧] من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»**.

ومن فضائل النفقة في سبيل الله: أن الله عز وجل جعلها رافعة للدرجات موفرة للأجور والحسنات. قال الله عز وجل في كتابه: **﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾** [المزمل: ٢٠]. وقال الله عز وجل في كتابه: **﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾** [البقرة: ٢٤٥].

ومن فضائل النفقة في سبيل الله: أنها دافعة لعذاب الله في الدنيا والآخرة[١٨]. أما في الدنيا فلعلمكم معاشر السامعين: أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر يوم الكسوف بالعتاقة. وقد ثبت في "صحيح

---

[١٦] أخرجه البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠).

[١٧] أخرجه البخاري (٣٥٨٦) ومسلم (١٤٤).

[١٨] عن الحارث الأشعري رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: **«إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها –إلى قوله:– وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا**

البخاري" من حديث أسماء قالت: **لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالعتاقة في كسوف الشمس**. (أخرجه البخاري (١٠٥٤)).

والعتاقة مظهر من مظاهر الإنفاق في سبيل الله. والكسوف والخسوف –كسوف الشمس والقمر– آيتان من آيات الله يخوِّف الله بها عباده فيذهب المتصدق إلى استدفاع عقوبة الله في الدنيا بهذه الصدقة، وبهذه الصدقة لعل الله أن يكشف عن المؤمنين ما حلّ بهم[١٩].

وأما في الآخرة فلقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»[٢٠].

ولحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضحى أو فطر إلى المصلى ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال: «**أيها الناس تصدقوا**» فمرّ على النساء

يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم». الحديث. (أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)/ صحيح).

[١٩] قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن للصدقة تأثيراً عجيباً في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجر أو من ظالم بل من كافر فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعا من البلاء وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم وأهل الأرض كلهم مقرون به لأنهم جربوه –إلى قوله:– وفي تمثيل النبي صلى الله عليه و سلم ذلك بمن قدم ليضرب عنقه فافتدى نفسه منهم بماله كفاية فإن الصدقة تفدي العبد من عذاب الله تعالى فإن ذنوبه وخطاياه تقتضي هلاكه فتجئ الصدقة تفديه من العذاب وتفكه منه ولهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم في "الحديث الصحيح" لما خطب النساء يوم العيد: «**يا معاشر النساء تصدقن ولو من حليكن فإني رأيتكن أكثر أهل النار**» وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار. وفي "الصحيحين" عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجه فاتقوا النار ولو بشق تمرة**». ("الوابل الصيب"/ ص ٦٩-٧٢/ دار عالم الفوائد).

[٢٠] أخرجه البخاري (٦٥٣٩)/ دار السلام) ومسلم (١٠١٦)/ دار ابن الجوزي).

فقال: «**يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار**». فقلن: وبم ذلك يا رسول الله؟ قال: «**تكثرن اللعن وتكفرن العشير**»[٢١].

ويقول الله عز وجل في كتابه: ﴿**فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى**﴾[٢٢] [الليل: ١٤ - ١٨].

روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس وغيره أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وحقَّ لأبي بكر ذلك تفضلا من الله عز وجل وامتنانا على هذا الرجل الصالح الذي أنفق ماله كله وما أبقى لأهله، وإنما أبقى لهم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه كان لا يسبق إلى خير أبداً، وكان يبذل ماله طيبة به نفسه فأكرمه الله بمثل هذا.

﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى**﴾ [الليل: ١٧ - ٢٠]

---

[٢١] أخرجه البخاري (١٤٦٢) ومسلم (٨٠).

[٢٢] قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى**﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقًا تقيًا كريما جوادًا بذالا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله. فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منّةٌ يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل؛ ولهذا قال له عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية-: أما والله لولا يد لك كانت عندي لم أجزك بها لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال: ﴿**وَمَا لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى**﴾، وفي "الصحيحين" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من أنفق زوجين في سبيل الله دَعَته خَزَنَةُ الجنة: يا عبد الله، هذا خير**»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على من يُدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم**». ("تفسير القرآن العظيم"/ ٨/ ص ٤٢٢).

وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية في "منهاج السنة" هذه الآية تقريرا حسنا في مناسبتها لأبي بكر الصديق من نواحي كثيرة[٢٣].

---

[٢٣] قال أهل السنة: الأتقى بعد النبي صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقال الشيعة: هو علي رضي الله عنه. فقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: و كونه علياً باطل أيضا لأنه قال: ﴿**الذي يؤتي ماله يتزكى و ما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى و لسوف يرضى**﴾، و هذا الوصف منتف في علي لوجوه:

أحدها: أن هذه السورة مكية بالاتفاق، و كان علي فقيراً بمكة في عيال النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن له مال ينفق منه، بل كان النبي صلى الله عليه وسلم قد ضمّه إلى عياله لما أصابت أهل مكة سنة.

الثاني: أنه قال: ﴿**و ما لأحد عنده من نعمة تجزى**﴾، و علي كان للنبي صلى الله عليه و سلم عنده نعمة تجزى، و هو إحسانه إليه لما ضمه إلى عياله، بخلاف أبي بكر فإنه لم يكن له عنده نعمة دنيوية، لكن كان له عنده نعمة الدين، و تلك لا تجزى فإن أجر النبي صلى الله عليه و سلم فيها على الله لا يقدر أحد يجزيه فنعمة النبي صلى الله عليه وسلم عند أبي بكر دينية لا تجزى، و نعمته عند علي دنيوية تجزى ودينية.

و هذا الأتقى ليس لأحد عنده نعمة تجزى، و هذا الوصف لأبي بكر ثابت دون علي.

فإن قيل: المراد به أنه أنفق ماله لوجه الله لا جزاء لمن أنعم عليه. وإذا قدر أن شخصاً أعطى من أحسن إليه أجراً و أعطى شيئاً آخر لوجه الله كان هذا مما ليس لأحد عنده من نعمة تجزى.

قيل: هب أن الأمر كذلك، لكن علي لو أنفق لم ينفق إلا فيما يأمره به النبي صلى الله عليه و سلم و النبي له عنده نعمة تجزى فلا يخلص إنفاقه عن المجازاة كما يخلص إنفاق أبي بكر.

وعلي أتقى من غيره لكن أبا بكر أكمل في وصف التقوى، مع أن لفظ الآية أنه ليس عنده قط لمخلوق نعمة تجزى. و هذا وصف من يجازي الناس على إحسانهم إليه فلا يبقى لمخلوق عليه منة. و هذا الوصف منطبق على أبي بكر انطباقاً لا يساويه فيه أحد من المهاجرين فإنه لم يكن في المهاجرين عمر و عثمان و علي و غيرهم رجل أكثر إحساناً إلى الناس قبل الإسلام و بعده بنفسه و ماله من أبي بكر. كان مؤلِّفاً محبِّباً يعاون الناس على مصالحهم كما قال فيه ابن الدغنة سيد القارة لما أراد أن يخرج من مكة: **مثلك يا أبا بكر لا يخرج و لا يخرج فإنك تحمل الكل و تقري الضيف و تكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق.**

و في صلح الحديبية لما قال لعروة بن مسعود: **امصص بظر اللات أنحن نفر عنه و ندعه؟** قال لأبي بكر: لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

وما عرف قط أن أحدا كانت له يد على أبي بكر في الدنيا لا قبل الإسلام و لا بعده، فهو أحق الصحابة بقول الله تعالى: ﴿**وما لأحد عنده من نعمة تجزى**﴾ فكان أحق الناس بالدخول في الآية

و أما علي رضي الله عنه فكان للنبي صلى الله عليه و سلم عليه نعمة دنيوية. و في المسند لأحمد: أن أبا بكر رضي الله عنه كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني إياه و يقول: **إن خليلي امرني أن لا أسال الناس شيئا**. و في المسند و الترمذي وأبي داود من حديث عمر قال عمر: أمرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم إن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «**ما أبقيت لأهلك؟**». فقلت: مثله. قال: و أتى أبو بكر بكل ما عنده. فقال: «**ما أبقيت لأهلك؟**». قال: أبقيت لهم الله و رسوله. فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً.

فأبو بكر رضي الله عنه جاء بماله كله و مع هذا فلم يكن يأكل من أحد لا صدقة و لا صلة و لا نذراً، بل كان يتجر و يأكل من كسبه. و لما ولي الناس و اشتغل عن التجارة بعمل المسلمين أكل من مال الله و رسوله الذي جعله الله له لم يأكل من مال مخلوق.

و أبو بكر لم يكن النبي صلى الله عليه و سلم يعطيه شيئاً من الدنيا يخصه به، بل كان في المغازي كواحد من الناس، بل يأخذ من ماله ما ينفقه على المسلمين، و قد استعمله النبي صلى الله عليه و سلم و ما عرف أنه أعطاه عمالة، و قد أعطى عمر عمالة، و أعطى عليا من الفيء، و كان يعطي المؤلفة قلوبهم من الطلقاء و أهل نجد، و السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار لا يعطيهم كما فعل في غنائم حنين و غيرها و يقول: «إني لأعطي رجالاً و أدع رجالاً، و الذي أدع أحبّ إليّ من الذي أعطي. أعطى رجالاً لما في قلوبهم من الجزع و الهلع، و أَكِلُ رجالاً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى و الخير».

و لما بلغه عن الأنصار كلام سألهم عنه فقالوا: يا رسول الله أما ذوو الرأي منا فلم يقولوا شيئاً. و أما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً و يتركنا و سيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «**فإني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم. أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال و ترجعوا إلى رحالكم برسول الله؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به**». قالوا: بلى يا رسول الله، قد رضينا. قال: «**فإنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله و رسوله على الحوض**». قالوا: سنصبر.

وقوله تعالى: ﴿**و سيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى و ما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى و لسوف يرضى**﴾ استثناء منقطع. و المعنى: لا يقتصر في العطاء على من له عنده يد يكافئه بذلك فإن هذا من العدل الواجب للناس بعضهم على بعض بمنزلة المعاوضة في المبايعة و المؤاجرة. و هذا واجب لكل أحد على كل أحد فإذا لم يكن لأحد عنده نعمة تجزى لم يحتج إلى هذه المعادلة فيكون عطاؤه خالصا لوجه ربه الأعلى، بخلاف من كان عنده لغيره نعمة يحتاج

نعم معاشر السامعين: ومن فضائل النفقة في سبيل الله أنها سبب أكيد في دخول جنات عدن، جنات الإقامة الدائمة بفضل الله. هذه النفقة وهذا البذل. وذلك العطاء والجود سبب فيما سمعتم.

قال الله عز وجل في كتابه: ﴿ **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾ [**الرعد: ٢٢ – ٢٤**].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «**من أصبح منكم اليوم صائما ؟**» قال أبو بكر: أنا. قال: «**فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟**» قال أبو بكر: أنا. قال: «**فمن أطعم منكم اليوم مسكينا ؟**» قال أبو بكر: أنا. قال: «**فمن عاد منكم اليوم مريضا ؟**» قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «**ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة**»[٢٤]. (أخرجه مسلم (١٠٢٨)).

ومن فضائل الإنفاق والصدقة في سبيل الله: لا سيما في مواسم الخير بلوغ مرتبة البر حقيقة لا سيما إذا كان ما ينفقه العبد من الجيد لا من الرديء.

قال الله تعالى: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمران: ٩٢].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ قام أبو طلحة

أن يجزيه لها فإنه يحتاج أن يعطيه مجازاة له على ذلك. و هذا الذي ما لأحد عنده من نعمة تجزى إذا أعطى ماله يتزكى فإنه في معاملته للناس يكافئهم دائماً و يعاونهم و يجازيهم، فحين أعطاه الله ماله يتزكى لم يكن لأحد عنده من نعمة تجزى.
(انتهى من "منهاج السنة النبوية"/ ٧/ ص٢٠٥-٢٠٨).

[٢٤] أخرجه مسلم (١٠٢٨).

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ وإن أحبّ أموالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[٢٥].

***

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارا به وتوحيدا وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما مزيدا، أما بعد:

معاشر المؤمنين؛ إن من فضائل النفقة في سبيل الله: أن الله عز وجل يخص بالرعاية والعناية من كان منفقا في سبيل الله ولو كان بين أناس محرومين لبخلهم وشحّهم، فإن الله يخصه بالعطاء من بين هؤلاء القوم المحرومين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «**بينا رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتا في سحابة اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته فقال له يا عبدالله ما اسمك ؟ قال فلان للاسم الذي سمع في السحابة فقال له يا عبدالله لم تسألني عن اسمي ؟ فقال**

---

[٢٥] أخرجه البخاري (١٤٦١) ومسلم (٩٩٨).

إني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك. فما تصنع فيها[٢٦] **؟ قال أما إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثا وأرد فيها ثلثه»**[٢٧].

فكان ذلك هو السر في أن الله خصه بالرعاية والعناية.

ويكفي أمر الإنفاق شرفاً أن الله توجه بمثلين عظيمين في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فقال الله في كتابه: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[٢٨] [البقرة: ٢٦١].

---

[٢٦] قال علي القاري رحمه الله: «**فما تصنع فيها**» أي: في حديقتك من الخير حتى تستحق هذه الكرامة. ("مرقاة المفاتيح"/ ٦/ ص١٨٠).

[٢٧] أخرجه مسلم (٢٩٨٤).

[٢٨] قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض ومثل سبحانه بهذا المثل إحضارا لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غيبت في الأرض فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته، كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة الواحدة، فينضاف الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني فيقوى إيمان المنفق وتسخو نفسه بالإنفاق. وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل وهي من جموع الكثرة إذ المقام مقام تكثير وتضعيف وجمعها على سنبلات في قوله تعالى: ﴿**وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات**﴾ فجاء بها على جمع القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير. وقوله تعالى: ﴿**والله يضاعف لمن يشاء**﴾ قيل: المعنى والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، بل يختص برحمته من يشاء. وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه ولصفات المنفق وأحواله في شدة الحاجة وعظيم النفع وحسن الموقع.

وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك فلا يقتصر به على السبعمائة، بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة.

واختلف في تفسير الآية فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة. وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة ليطابق الممثل للممثل به. فههنا أربعة أمور: منفق، ونفقة، وباذر، وبذر. فذكر سبحانه من كل شق أهم

عن أبي هريرة رضي الله عنه[٢٩] قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع**»[٣٠].

قسميه. فذكر من شق الممثل المنفق إذ المقصود ذكر حاله وشأنه وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها. وذكر من شق الممثل به البذر إذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة وترك ذكر الباذر لأن القرض لا يتعلق بذكره. فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان، وهذا كثير في أمثال القرآن بل عامتها ترد على هذا النمط.

ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها وهما: (الواسع) و(العليم) فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطاؤه فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق، فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها، فإنّ كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته، بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه.

(انتهى من "طريق الهجرتين"/ ص ٤٦٢/ ط. دار ابن رجب).

[٢٩] أخرجه البخاري (١٤٤٣) ومسلم (١٠٢١).

[٣٠] قال شيخ الإسلام رحمه الله: فالبر والتقوى يبسط النفس، ويشرح الصدر، بحيث يجد الإنسان في نفسه اتساعا وبسطا عما كان عليه قبل ذلك، فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح صدره، والفجور، والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها، بحيث يجد البخيل في نفسه أنه ضيق . ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص ٦٢٩).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: ولما كان البخيل محبوسا عن الإحسان ممنوعا عن البر والخير وكان جزاؤه من جنس عمله، فهو ضيق الصدر ممنوع من الانشراح، ضيق العطن، صغير النفس، قليل الفرح كثير الهم والغم والحزن، لا يكاد تقضى له حاجة ولا يعان على مطلوب، فهو كرجل عليه جبة من حديد قد جمعت يداه إلى عنقه بحيث لا يتمكن من إخراجها ولا حركتها، وكلما أراد إخراجها أو توسيع تلك الجبة لزمت كل حلقة من حلقها موضعها. وهكذا البخيل كلما أراد أن يتصدق منعه بخله فبقي قلبه في سجنه كما هو. والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه وانفسح بها صدره

«**فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره**» هنا يحصل المنفق الوقاية من الواردات الغريبة المؤذية للبدن.

عباد الله؛ إنما يُحسَد من الناس من كان معطاءً سخياً لا من كان غنيا ممسكا بخيلا.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال[٣١]: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»[٣٢].

فهو بمنزلة اتساع تلك الجبة عليه فكلما تصدق اتسع وانفسح وانشرح وقوي فرحه وعظم سروره. ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبد حقيقا بالاستكثار منها والمبادرة إليها. وقد قال تعالى: ﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾. ("الوابل الصيب"/ ص ٤٩).

[٣١] أخرجه البخاري (١٤٠٩) ومسلم (٨١٦).

[٣٢] قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومن أمراض القلوب الحسد، كما قال بعضهم في حده : إنه أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء، فلا يجوز أن يكون الفاضل حسودا؛ لأن الفاضل يجري على ما هو الجميل، وقد قال طائفة من الناس : إنه تمنى زوال النعمة عن المحسود، وإن لم يصر للحاسد مثلها، بخلاف الغبطة : فإنه تمنى مثلها من غير حب زوالها عن المغبوط .

والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان :

أحدهما : كراهة للنعمة عليه مطلقا، فهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضا في قلبه، ويلتذ بزوال النعمة عنه، وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه، ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه، وهو راحة، وأشده كالمريض الذي عولج بما يسكن وجعه والمرض باق؛ فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض . فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها، وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود . والحاسد ليس له غرض في شيء معين، لكن نفسه تكره ما أنعم به على النوع؛ ولهذا قال من قال : إنه تمنى زوال النعمة، فإن من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه .

والنوع الثاني : أن يكره فضل ذلك الشخص عليه، فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة، وقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم حسدا في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : «**لا حسد إلا في اثنتين : رجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق**» هذا لفظ ابن مسعود، ولفظ ابن عمر : «**رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار**» رواه البخاري من حديث أبي هريرة ولفظه : «**لا حسد إلا في اثنين : رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه الليل والنهار، فسمعه رجل فقال : يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا، فعملت فيه مثل ما يعمل هذا، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق . فقال رجل : يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا**» . فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه .

فإن قيل : إذاً لِمَ سمي حسدا وإنما أحب أن ينعم الله عليه ؟ قيل : مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته أن يتفضل عليه، ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يتفضل عليه الغير كان حسدا؛ لأنه كراهة تتبعها محبة، وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس، فهذا ليس عنده من الحسد شيء .

ولهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني، وقد تسمى المنافسة، فيتنافس الاثنان في الأمر المحبوب المطلوب، كلاهما يطلب أن يأخذه، وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر، كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر، والتنافس ليس مذموما مطلقا، بل هو محمود في الخير، قال تعالى : ﴿**إن الأبرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ [المطففين : ٢٢ -٢٦].

فأمر المنافس أن ينافس في هذا النعيم، لا ينافس في نعيم الدنيا الزائل، وهذا موافق لحديث النبي صلى الله عليه وسلم فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أوتي العلم فهو يعمل به ويعلمه، ومن أوتي المال فهو ينفقه، فأما من أوتي علما ولم يعمل به ولم يعلمه، أو أوتي مالا ولم ينفقه في طاعة الله فهذا لا يحسد ولا يتمنى مثل حاله، فإنه ليس في خير يرغب فيه، بل هو معرض للعذاب، ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل، أدى الأمانات إلى أهلها، وحكم بين الناس بالكتاب والسنة، فهذا درجته عظيمة، لكن هذا في جهاد عظيم، كذلك المجاهد في سبيل الله .

والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم؛ فلهذا لم يذكره، وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال، بخلاف المنفق والمعلم فإن هذين ليس لهم في العادة عدو من خارج، فإن قدر أنهما لهما عدو يجاهدانه، فذلك أفضل لدرجتهما، وكذلك لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم المصلي والصائم والحاج؛ لأن هذه الأعمال لا يحصل منها في العادة من نفع الناس الذي يعظمون به الشخص، ويسودونه ما يحصل بالتعليم والإنفاق .

والحسد في الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة، وإلا فالعامل لا يحسد في العادة، ولو كان تنعمه بالأكل والشرب والنكاح أكثر من غيره، بخلاف هذين النوعين فإنهما يحسدان كثيرا؛ ولهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك، وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله، فهذا ينفع الناس بقوت القلوب وهذا ينفعهم بقوت الأبدان، والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا .

-إلى قوله:-

هذا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه نافس أبا بكر رضي الله عنه الإنفاق كما ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما . قال: فجئت بنصف مالي، قال : فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**ما أبقيت لأهلك ؟**» قلت : مثله، وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**ما أبقيت لأهلك ؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله فقلت : لا أسابقك إلى شيء أبدا.

فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة، لكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل منه وهو أنه خال من المنافسة مطلقا لا ينظر إلى حال غيره .

وكذلك موسى صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج حصل له منافسة وغبطة للنبي صلى الله عليه وسلم حتى بكى لما تجاوزه النبي صلى الله عليه وسلم: «**فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي، لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي**»، أخرجاه في الصحيحين، -إلى قوله:-

وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال : ﴿**ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ [الحشر : ٩] ، أي : مما أوتي إخوانهم المهاجرون، قال المفسرون : لا يجدون في صدورهم حاجة أي :

[فصل: أهمية القناعة والنزاهة والعفة]

نعم معاشر السامعين، وحيث أمر الله عز وجل بالجود والسخاء والبذل والعطاء فقد أمر بالعفة والنزاهة والقناعة من جانب آخر. وقد توفر هذا في المهاجرين والأنصار، فلما كان الأنصار أهل بذل

حسدا وغيظا مما أوتي المهاجرون، ثم قال بعضهم : من مال الفيء، وقيل : من الفضل والتقدم، فهم لا يجدون حاجة مما أتوا من المال ولا من الجاه، والحسد يقع على هذا .

وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك، فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال : ﴿**ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ [المطففين : ٢٦] .

وأما الحسد المذموم كله، فقد قال تعالى في حق اليهود : ﴿**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق**﴾ [البقرة : ١٠٩] ، يودون : أي : يتمنون ارتدادكم حسدا، فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعد ما تبين لهم الحق؛ لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل، بل ما لم يحصل لهم مثله حسدوكم، وكذلك في الآية الأخرى : ﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفي بجهنم سعيرا**﴾ [النساء : ٥٤- ٥٥]، وقال تعالى : ﴿**قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات في العقد . ومن شر حاسد إذا حسد**﴾ [سورة الفلق] .

وقد ذكر طائفة من المفسرين أنها نزلت بسبب حسد اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم حتى سحروه: سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، فالحاسد المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالم معتد، والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله، فإذا أحب أن يعطي مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله فهذا لا بأس به. وإعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل .

(انتهى من "مجموع الفتاوى" / ١٠ / ص١١١-١٢١).

وسخاء وعطاء كان المهاجرون في المقابل أهل عفة وقناعة ونزاهة، وبهذا سعد الحال بين هؤلاء الأقوام السعداء .

عن أنس رضي الله عنه[٣٣] قال: قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة، فآخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري وكان سعد ذا غنى فقال لعبد الرحمن: أقاسمك مالي نصفين وأزوجك. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق.

سبحان الله، كان الأنصار يمثلون جانب الإيثار، وكان المهاجرون يمثلون جانب العفة والنزاهة.

نعم معاشر السامعين، فلذا قال النبي صلى الله عليه وسلم [٣٤]: «**ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان**[٣٥] **ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن به فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس**»[٣٦].

---

[٣٣] أخرجه البخاري (٢٠٤٩).

[٣٤] أخرجه البخاري (١٤٧٩) ومسلم (١٠٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٣٥] من تعوّد على التسولات فهو في خطر عظيم لأنها من الكبائر، وأنها قد تغلب على قلب مرتكبها حتى تمنعه من النطق بالشهادتين عند مجيء الموت.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله عن أضرار الذنوب: إن العبد إذا وقع في شدة، أو كربة، أو بلية، خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والانابة إليه والجمعية عليه والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ولا يطاوعه لسانه لذكره وان ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فلا ينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر ولا ينحبس اللسان والقلب على المذكور، بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب غافل لاه ساه ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه، **وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي**. كمن له جند يدفع عنه الأعداء فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم وقطع أخبارهم ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة.

هذا وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى وأمر وهو: أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى، **فربما تعذر عليه النطق بالشهادة** كما شاهد الناس كثيرا من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم: (قل: لا إله إلا الله) فقال: (آه آه لا أستطيع أن أقولها).

وقيل لآخر: (قل: لا إله إلا الله) فقال: (شاه رخ غلبنك) ثم قضى. وقيل لآخر: (قل: لا إله إلا الله) فقال: (يا رب قائلة يوما وقد تعبت ... أين الطريق إلى حمام منجاب؟) ثم قضى. وقيل لآخر: (قل: لا إله إلا الله) فجعل يهذي بالغناء ويقول: (تاتا ننتتا) فقال: (وما ينفعني ما تقول، ولم أدع معصية إلا ركبتها) ثم قضى ولم يقلها. وقيل لآخر ذلك فقال: (وما يغني عني وما أعلم أني صليت لله تعالى صلاة) ثم قضى ولم يقلها. وقيل لآخر ذلك فقال: (هو كافر بما تقول) وقضى. وقيل لآخر ذلك فقال: (كلما أردت أن أقولها فلساني يمسك عنها). **وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول: (لله، فُليسٌ لله، فليس حق) قضى**. وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه: لا إله إلا الله وهو يقول: (هذه القطعة رخيصة، هذا مشترى جيد، هذه كذا) حتى قضى.

وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبرا والذي يخفي عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم، وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصي، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى وعطل لسانه من ذكره وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع، وجمع الشيطان له كل قوته وهمته وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة. فمن ترى يسلم على ذلك؟ **فهناك ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾**. فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا؟ فبعيد من قلب بعيد من الله تعالى غافل عنه متعبد لهواه مسيَّرٍ لشهواته ولسانه يابس من ذكره وجوارحه معطلة من طاعته مشتغلة بمعصية الله أن يوفق لحسن الخاتمة.

(انتهى النقل من "الجواب الكافي" / ص ٦١-٦٢).

[٣٦] قال شيخ الإسلام رحمه الله: فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج، وكان ذلك مشهورا عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال، فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الذي يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه، تزول مسكنته بإعطاء الناس له، والسؤال له بمنزلة الحرفة، وهو وإن كان مسكينا يستحق من الزكاة إذا لم يعط من غيرها كفايته، فهو إذا وجد من يعطيه

عن حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ رضى الله عنه[٣٧] قال: سَأَلْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فَأَعْطَانِى، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِى ثُمَّ قَالَ لِى: « **يَا حَكِيمُ ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِى يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**». قَالَ حَكِيمٌ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا[٣٨].

وقد فسرت اليد السفلى في "الصحيحين"[٣٩] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف والمسألة: «**اليد العليا خير من اليد السفلى فاليد العليا هي المنفقة والسفلى هي السائلة**».

ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن اليد السفلى هي الآخذة) لأنه قد ثبت في حديث عَبْدِ الله بن عمر رضي الله عنهما[٤٠]: أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم كَانَ يُعْطِى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضى الله عنه الْعَطَاءَ فَيَقُولُ لَهُ عُمَرُ: أَعْطِهِ يَا رَسُولَ الله أَفْقَرَ إِلَيْهِ مِنِّي. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**خُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ أَوْ تَصَدَّقْ بِهِ وَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ فَخُذْهُ وَمَا لاَ فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ**».

كفايته لم يبق مسكينا، وإنما المسكين المحتاج الذي لا يسأل ولا يعرف فيعطى . فهذا هو الذي يجب أن يقدم في العطاء، فإنه مسكين قطعا، وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص٣٠١-٣٠٢).

[٣٧] أخرجه البخاري ((٢٧٥٠)/ دار السلام).

[٣٨] ذكر الإمام الحافظ ابن القطان الفاسي رحمه الله: **واتفقوا أن المسألة حرام**. ("الإقناع في مسائل الإجماع" / ٧/ ٣/ ص٣٩٧).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: فإذا طلب رزقه من الله صار عبدا لله فقيرا له، وإذا طلبه من مخلوق صار عبدا لذلك المخلوق فقيرا له، ولهذا **كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل**، وإنما أبيحت للضرورة وفي النهى عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص١٨٢).

[٣٩] أخرجه البخاري (١٤٢٩) ومسلم (١٠٣٣).

[٤٠] أخرجه البخاري (٧١٦٣)) ومسلم (١٠٤٥)/ دار الكتاب العربي) واللفظ له.

قَالَ سَالِمٌ: فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ ابْنُ عُمَرَ لاَ يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا وَلاَ يَرُدُّ شَيْئًا أُعْطِيَهُ[٤١].

والله لا نعرف أعف طعمة ولا أقنع قلوبا ولا أزهد في الدنيا من أهل السنة والجماعة[٤٢]، ولا سيما المحصورون منهم في دور الحديث القائمون بأمر الله المجاهدون لأهل الباطل بكل أنواع الجهاد بالقلم

---

[٤١] على هذه العفة تربى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كبارهم وصغارهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: «**إذا سألت فاسأل الله، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله**». (أخرجه الترمذي (٢٥١٦)/ قال الإمام الوادعي رحمه الله: صحيح لغيره ("الصحيح المسند" رقم (٦٨٥))).

انظروا كيف علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عباس هذه العقيدة المتينة على صغر سنه وحاجته إلى غيره، أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يسأل أحداً شيئاً إلا الله.

وعن أبي العالية قال: كان ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «**من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئا وأتكفل له بالجنة**» فقال ثوبان أنا فكان لا يسأل أحدا شيئا . (أخرجه أبو داود (١٦٤٣) / سنده صحيح)

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله -صلى الله عليه وسلم- تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً فَقَالَ: « **أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله** » وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ الله. ثُمَّ قَالَ: «**أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله** ». فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ الله. ثُمَّ قَالَ: «**أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله** ». قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ الله فَعَلاَمَ نُبَايِعُكَ قَالَ: « **عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا الله وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَتُطِيعُوا - وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا** ». فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ . (أخرجه مسلم (١٠٤٣)).

وعن أم الدرداء رحمها الله قالت: قال لي أبو الدرداء : لا تسألي الناس شيئا ، قالت : فقلت : فإن احتجت ؟ قال : فإن احتجت فتتبعي الحصادين فانظري ما سقط منهم فاخبطيه ثم اطحنيه ثم كليه، ولا تسألي الناس شيئا. (أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد (٧٦٨)/ صحيح).

[٤٢] هذه هي خصلة المؤمن الحقيقي: أنه متوكل على الله وحده. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾. (الأنفال: ٢-٤)

والسيف، فإنهم أعف الناس وأقنعهم وأصبرهم على القليل[٤٣]، نعم، فهؤلاء يمثلون جانب المهاجرين حقا، نعم، إخواني في الله هكذا كان سلفنا الصالح لا يسخرون المنابر ولا المساجد ولا الأقلام ولا الدفاتر ولا الكتب لجمع الدراهم[٤٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، -إلى قوله:- أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٢/ ص ٣٩٢/ دار الصديق).

[٤٣] قال الإمام الوادعي -رحمه الله-: وننصح أهل السنة أن يتميزوا وأن يبنوا لهم مساجد ولو من اللبن أو من سعف النخل، فإنّهم لن يستطيعوا أن ينشروا سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلا بالتميّز وإلا فالمبتدعة لن يتركوهم ينشرون السنة. ("تحفة المجيب" / ص ٢٠٨/ ط. دار الآثار).

[٤٤] قال الإمام ابن مفلح رحمه الله: وروى الخلال عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه صلى في مسجد، فقام سائل فسأل، فقال أبو عبد الله : أخرجوه من المسجد، هذا يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم. ("الآداب الشرعية"/ ٢ / ص١٥٩).

وقال الإمام الوادعي رحمه الله: ويالله كم من داعية كبير تراه يحفظ الآيات التي فيها ترغيب في الصدقة، وينتقل من هذا المسجد إلى هذا المسجد: ﴿**وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرًا**﴾. وانقلب المسكين من داعية إلى شحاذ، وصدق الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذ يقول: «**لكلّ أمّة فتنةً، وفتنة أمّتي المال**». ("ذم المسألة" / ص٢١٨/ مجموعة رسائل/ دار الآثار).

وقال رحمه الله : خذوا لكم مكبر صوت واخرجوا في الشوارع. أما بيوت الله فلم تبن إلا لذكر الله ولم تبن للشحاذة. وأقول إنه ينبغي أن يخرج من المسجد هذا الذي يقوم في بيت الله للشحاذة ثم بعد أن يجمعوا الأموال يخزنون بها وربما أرسلوا بشيء منها. وقد أخبرني بعض من حضر أنه بعد أن جمعت الأموال من أجل مساعدة المغتربين فإذا كل واحد منهم يقول: ﴿**والعاملين عليها**﴾ -إلى قوله:- **فالمسألة لصوصية**، فالمرعي لصّ بالحديدة، ولصوص الدعوة كثير، إلخ ("غارة الأشرطة" / ١ / ص ٥٣٦-٥٣٧/ ط. مكتبة صنعاء الأثرية).

وما حادثة الحصار في هذه الدار عنا ببعيد. فإن أهل هذه الدار كانوا على أتمّ حال من القناعة والعفة ولم يضيعهم الله، بينما سعى باسمهم كثير من الناس وذهبوا يشرقون ويغربون بجمع الأموال إليهم لا إلى هذه الدار ، نعم، فلزم أهل هذه الدار الذين هم أحق الناس في أيام الحصار بالعطاء القناعة والعفة، وسعى في جمع الدراهم من سواهم لهم[٤٥]. فسبحان الله ما أكرم أهل السنة، وما أشد قناعتهم وعفتهم ونزاهتهم[٤٦].

نعم، إنهم يتأسون بالصحابة الكرام، إن لهم مثلا وأسوة بسلفهم الكرام الذين يدرسون سيرهم في كتبهم وفي حلَقِهم العلمية، نعم، فانصبغت هذا القناعة على أنفسهم[٤٧] وعلى سيرتهم الجميلة وذكرهم.

---

[٤٥] كما في حديث زيد بن ثابت: «**من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يؤت من الدنيا إلا ما كتب له . ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره . وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة**». (أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)/ صحيح).

[٤٦] قال شيخ الإسلام رحمه الله: والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقارا اليه وخضوعا له كان أقرب إليه وأعز له وأعظم لقدره. فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله. وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره –إلى قوله:- فأعظم ما يكون العبد قدرا وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم. **ومتى احتجت إليهم ولو في شربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته ليكون الدين كله لله ولا يشرك به شيء**،... إلخ. ("مجموع الفتاوى" / ١/ ص ٣٩).

[٤٧] قال الإمام الحافظ عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني الحنبلي رحمه الله: ... لأن من علم شيئا ولا يعمل به كان كمن لا يعلم. ("رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز"/ للرسعني الحنبلي/ ٣/ ص٣٨٠/ ط. مكتبة الأسدي).

والله لا يضيعهم ولا يسلمهم إلى غيرهم[٤٨].

[فصل: نبذة عن أحكام صدقة الفطر]

معاشر السامعين، إن من مظاهر الإنفاق في سبيل الله زكاة الفطر التي قد قرب وقت بذلها فيتنبه المسلم لذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما[٤٩] : **فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة .**

هذا وقتها معاشر السامعين. ولكن لا بأس أن تجمع قبل العيد بيوم أو يومين حتى تحصر في مكان لتوزع على ذويها. نعم، قال هذا أهل العلم، وكان يفعله ابن عمر وهو راوي هذا الحديث[٥٠] .

وعكس ذلك: أن من عمل بعلمه فهو العالم. قال الإمام الحافظ سفيان بن عيينة رحمه الله: أجهل الناس من ترك ما يعلم، وأعلم الناس من عمل بما يعلم، وأفضل الناس أخشعهم لله. (أخرجه الدارمي في مقدمة "السنن" / رقم (٣٤٣)/ صحيح).

[٤٨] قال الإمام ابن القيم رحمه الله في تفسير: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾: ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه وواقيه. فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجا من ذلك وكفاه ونصره. ("بدائع الفوائد"/ ٢/ ص٤٦٥).

[٤٩] أخرجه البخاري (١٥٠٣) ومسلم (٩٨٤).

[٥٠] قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله: ورواه موسى ابن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم بزكاة الفطر أن تؤدى قبل أن يخرج الناس إلى الصلاة. قال: وكان عبدالله بن عمر يؤديها قبل ذلك باليوم واليومين. ("التمهيد"/ ١٤/ ص٣٢٦).

قال الإمام ابن باز رحمه الله: فيجب على المسلمين أن يخرجوا هذه الزكاة قبل صلاة العيد ؛ لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أمر بإخراجها قبلها . ويجوز إخراجها قبل العيد بيوم أو يومين ، كما كان أصحاب النبي – صلى الله عليه

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإخراج صاع من الطعام، ففي هذا دليل على أن جنس زكاة الفطر طعام وليس من الدراهم، وقد كان النقدان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يخرجها من النقدين فتبين أن جنسها من هذا الطعام ولا يخرج غيره من الدراهم[٥١]. ومن أُخذ من دراهمه في وظيفته ومن راتبه الشهري فليجعلها صدقة من الصدقات وليحتط لنفسه وليخرجها طعاما، هكذا قاله أهل العلم.

وسلم – يفعلون ذلك . وبذلك يعلم أنه لا مانع من إخراجها في اليوم الثامن والعشرين والتاسع والعشرين والثلاثين وليلة العيد ، وصباح العيد قبل الصلاة ؛ لأن الشهر يكون ثلاثين ويكون تسعة وعشرين ، كما صحت بذلك الأحاديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – . ("مجموع فتاوى ابن باز"/ ١٤/ ص٣٢).

[٥١] قال الإمام ابن باز رحمه الله: ولا يجوز إخراج القيمة في قول أكثر أهل العلم ؛ لكونها خلاف ما نص عليه النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه رضي الله عنهم ، وقد قال الله عز وجل : ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾، وقال سبحانه : ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ والله ولي التوفيق .

(انتهى من " مجموع فتاوى ابن باز"/ ١٤/ ص٣٢).

وقد سئل الإمام ابن عثيمين رحمه الله: لماذا لا يجزئ صدقة الفطرة بالفلوس أي: الدراهم؟

فأجاب رحمه الله: لا يجزئ إخراج زكاة الفطر إلا من الطعام، لقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (فرض النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير) فعين، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (كنا نخرجها على عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم صاعاً من طعام). ولأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فرضها صاعاً من طعام: تمر أو شعير أو زبيب أو إقط، وهذه الأربعة في الغالب مختلفة القيمة، أي: يندر جداً أن يكون صاع التمر مثل صاع الشعير أو مثل صاع الزبيب أو مثل صاع الأقط، فرضها النبي عليه الصلاة والسلام صاعاً من الطعام، والطعام مختلف القيمة، فدل هذا على أنها لا تجزئ من القيمة. لكن لو فرضنا أننا في بلد لا يقبلون إلا الدراهم، يقول: خذوا الطعام وبيعوه، فإن أبوا صرفناها إلى بلدٍ آخر.

هكذا معاشر السامعين، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيّن على من تجب؟ **على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين**. فمن كان جنينا في بطن أمه فلا يوصف بكونه صغيرا وإنما يوصف بكونه جنينا ولا تجب عليه الزكاة في راجح أقوال أهل العلم[٥٢].

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيّن وقت خروجها فلا ينبغي تأخيرها عن صلاة العيد.

(انتهى من "لقاءات الباب المفتوح"/ ١٩٠/ ص١٣).

وقد سئل فضيلة العلامة الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: كثر الجدل مؤخرًا بين علماء بعض الدول الأخرى حول المشروع في زكاة الفطر، وإمكانية إخراج القيمة، فما رأي فضيلتكم ؟

فأجاب حفظه الله: المشروع في زكاة الفطر أن تؤدى على الوجه المشروع الذي أمر به النبي صلى الله عليه وسلم، بأن يدفع المسلم صاعًا من قوت البلد وتُعطى للفقير في وقتها، أما إخراج القيمة فإنه لا يجزئ في زكاة الفطر؛ لأنه خلاف ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم وما عمل به صحابته الكرام من إخراج الطعام، ولم يكونوا يخرجون القيمة وهم أعلم منا بما يجوز وما لا يجوز، والعلماء الذين قالوا بإخراج القيمة قالوا ذلك عن اجتهاد، والاجتهاد إذا خالف النص فلا اعتبار به . -إلى أن قال-: قيل للإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله- : قوم يقولون : عمر بن عبد العزيز كان يأخذ القيمة في الفطرة ؟ قال : يَدَعون قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون : قال فلان، وقد قال ابن عمر : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعًا . . . انتهى . ("المنتقى من فتاوى الفوزان"/ ٨١/ ص ١٤).

[٥٢] قال الإمام ابن المنذر رحمه الله: وأجمعوا على أن صدقة الفطر فرض. وأجمعوا على أن صدقة الفطر تجب على المرء إذا أمكنه أداؤها عن نفسه وأولاده الأطفال الذين لا أموال لهم. وأجمعوا أن على المرء أداء زكاة الفطر عن مملوكه الحاضر. وأجمعوا على أن لا صدقة على الذمي في عبده المسلم. وأجمعوا على أن المرأة قبل أن تنكح تخرج الزكاة للفطر عن نفسها. وأجمعوا على أن لا زكاة على الجنين في بطن أُمه، وانفرد ابن حنبل: فكان يحبه ولا يوجبه. ("الإجماع" / للإمام ابن المنذر/ ص ٦).

نسأل الله أن يوفِّقنا وينفعنا بما سمعنا، وأن يرزقنا علماً ينفعنا .

والحمد لله رب العالمين.

فهرس الرسالة

مقدمة ٢

[فصل: الحث على تحسين الخواتيم] ٢

[فصل: حصول التقوى من حِكم الصيام] ٣

[فصل: الحث على الإنفاق في سبيل الله وفي سائر وجوه الخير] ٣

[فصل: أهمية القناعة والنزاهة والعفة] ٢٠

[فصل: نبذة من أحكام صدقة الفطر] ٢٧

فهرس الرسالة ٣١